الباب السادس:

من أعلام التصوف (حسب وفاتهم)

١- الحسن البصري (ت ١١٠هـ).

٢- إبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م).

٣- الفضيل بن عياض (ت١٨٧هـ/٨٠٣م).

٤- شقيق البلخي (ت ١٩٤هـ/٨١٠م).

٥- بشر الحافي (ت ٢٢٧هـ/٨٤١م).

٦- حاتم الأصم (ت٢٣٧هـ/٨٥١م).

٧- سري السقطي (ت ٢٥٣هـ/٨٦٧م).

٨- أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م).

٩- الجنيد بن محمد (ت٢٩٧هـ/ ٩١٠م).

١٠- محمد الغزالي (ت٥٢٠هـ).

من أعلام التصوف[1]

- أعلام التصوف أكثر من أن يحصوا، وهم أعلام العلم والعلماء، وأهل الفضل والإحسان، وأصحاب التقوى والإيمان، وذو الذكر والعرفان وأكابر الصالحين وأهل اللّه، الذين ظهروا على مر العصور والأزمنة، وفي كل مكان وزمان، وحملوا راية الدعوة والإرشاد، والتزكية والإحسان، فبلغوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وربوا الأجيال المتلاحقة، وحافظوا على السنة المطهرة، وعلى الأمة الخيّرة.

- ذكرت سيرهم وهم الألوف المؤلفة في العديد من كتب التراجم والسير نورد خلاصة بسيطة عن عدد قليل منهم للذكر لا للحصر، وللتعرف على هذه النماذج القدوة في العلم والصلاح والتزكية والإحسان والزهد والرضا والرضوان والصبر والشكر في كل حال من الأحوال، حتى أصحبوا منارات للهداية، وأئمةً في الزهد والصلاح والتقوى والورع والتوكل والرضا، يقتدي بهم مَنْ بعدهم من الذين ساروا على نهجهم وطريقتهم، فذاع صيتهم، وانتشر خبرهم وعلا أمرهم، وكثر الحديث عنهم، وعمَّ نفعهم في كل زمان ومكان وإلى يومنا هذا.

- هذا وإن الدارس لهؤلاء الأعلام يجد أن هناك تشابهاً بينهم في كثير من الأحيان في طريق وصولهم إلى معرفة الله ﷻ، واجتماع قلوبهم عليه، وذلك من

---

(١) انظر سير السلف الصالحين: الإمام أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني. والرسالة القشيرية: الإمام القشيري، وصفة الصفوة: للإمام أبي الفرج بن عبد الرحمن الجوزي، وسير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، وطبقات ابن سعد، وحلية الأولياء: لأبي نعيم، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، والبداية والنهاية: لابن كثير. وطبقات الصوفية: للسلمي، وميزان الاعتدال: للذهبي.

خلال ما خصهم الله به من صحوة إيمانية، ودلالة ربانية عليه بعد أن كانوا في غفلة عنه، فأسرعوا إلى التمسك بهذا الطريق المستقيم والاستقامة عليه في أعلى مستواه، وأرقى محتواه، فأفاض الله على ألسنتهم من الأقوال التي فيها العظة النيرة والحكمة البالغة والعبرة القيمة التي انتفع بها كل من صاحبهم، وكل من سار على دربهم، واطلع بسلامة قلب على أخبارهم وأقوالهم.

- وقد اخترت عشرة من أعلامهم للذكر لا للحصر، لنقف على أحوالهم وأقوالهم بصفتهم نماذج لأولئك الأعلام، مع الانتباه إلى أنهم ما عدا حجة الإسلام محمد الغزالي من الرعيل الأول، ومن القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ، فسنوات وفاتهم قبل القرن الثالث الهجري، وقد عاشوا في أزمان أئمة الفقه المجتهدين وأعلام الحديث رواية ودراية، فأخذوا عنهم وتعلموا، كما أخذ أولئك الأئمة عنهم واستفادوا، فكان عصرهم عصر الصفاء والنقاء والتمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة العصرَ الذي لم تظهر فيه البدع في الدين أو البعد عنه فكانوا من القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1].

(١) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

أولاً- الحسن البصري

- هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، كان من سادات التابعين وكبرائهم سناً ومقاماً، ولد لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر ﷺ، وحنكه عمر ﷺ بيده.

- كان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري ﷺ وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت أمه تغيب أحياناً فيبكي فتأخذه أم سلمة تعلله بثديها حتى تعود أمه، ولتكرر محاولات إسكاته در عليه ثديها فرضع منها فهو من بيت النبوة رضاعة.

- وقد رأى ثلاثين ومائة من أصحاب النبي ﷺ، وكان يشبه كلامه كلام الأنبياء، وكان رجلاً غلب عليه الحزن، ومات في شهر رجب سنة عشر ومائة وهو ابن تسع وثمانين سنة.

- ويعدّه الصوفية في رأس سلسلة سند التصوف، فهم يقولون إنه أخذ الطريقة (ولبس الخرقة) من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعلي ﷺ أخذها من الرسول ﷺ.

- قال يونس بن عبيد (وهو من أصحاب الحسن): ما رأيت رجلاً قط أطول حزناً من الحسن، كان إذا أقبل كأنه أقبل من دفن أمه، وإذا جلس كأنه أسير قُدِّمَ ليضرب عنقه، وإذا تكلم كأن النار لم تخلق إلا له.

من أقواله:

● لا تضحك فإنك لا تدري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً.

● لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث، أنه لم يشبع مما جمع، و لم يدرك ما أحل، و لم يحسن الزاد لما قدم عليه.

● بئس الرفيقان: الدنيا والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقانك.

● لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إلى ما في أيديهم فإذا احتجت إلى ما في أيديهم ثقل عليهم حديثك وُهنت عليهم.

● عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك.

● إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا فنافسه في الآخرة.

● الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

● ما يسرني مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

● نبكي على الميت ثلاثة أيام وعلى الأحمق حتى يموت.

● قيل له: إن الناس يقولون: إن الحجاج مغفور له، قال: آية ذلك أن يدع سيِّئ ما كان عليه.

● يا عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودوا بالرحيل وحبس أولهم على آخرهم وهم قعود يلعبون.

● أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول: الحسد والحرص وحب الدنيا، وفروعه: حب الرياسة، وحب الفخر، وحب الثناء، وحب الشبع، وحب النوم، وحب الراحة.

● من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه.

● أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم لا تدرون متى تنـــزل المغفرة.

● المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها، للناس حال وله حال.

● إن الرجل ليعمل بالحسنة فتكون نوراً في قلبه وقوة في بدنه وإن الرجل ليعمل بالسيئة فتكون ظلمة في قلبه ووهناً في بدنه.

● وكان من دعائه: اللهم عافيت فيما مضى فَعَافِ فيما بقي، اللهم أحسنت فيما مضى وأنت لما بقي.

● مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حِلٍّ حوسب بنعيمه، وإن أخذه من حرام عُذب به.

● ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع بمصيبته في دنياه.

● كان يقول: لسان الحكيم من وراء قلبه إذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن لم يكن له أمسك.

● وكانوا يقولون: إن قلب الجاهل في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم به.

● إياكم وما يشغل من الدنيا، فإنه لا يفتح رجل على نفسه باباً من الدنيا إلا سد عليه عشرة أبواب من عمل الآخرة.

● ابن آدم اصحب الناس بأي خلق شئت يصحبوك بمثله.

● قال أبو كعب صاحب الحرير: أردت سفراً، فأتيت الحسن، فقلت له: أَوْصِنِي، فقال: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك، ففعلت: فلم أزل عزيزاً حتى رجعت.

ثانياً- إبراهيم بن أدهم

- هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كدرة بلخ في خرسان[1]، كان من أبناء الملوك، فخرج يوماً يتصيد، فأثار ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه، فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به: ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت.

- فنـــزل عن دابته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها، وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية، ثم دخل مكة المكرمة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ثم انطلق إلى الشام طلباً للحلال فأقام بها غازياً (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م).

- وكان يعمل في البساتين والحصاد وغير ذلك فيأكل من عمل يده.

- قال حذيفة المرعشي[2]: قدم شقيق البلخي (ستمر ترجمته) مكة وإبراهيم بن أدهم فيها فاجتمع الناس فقالوا: نجمع بينهما فجمعوا بينهما في المسجد الحرام.

فقال إبراهيم بن أدهم لشقيق: يا شقيق، على ماذا أصّلتم أصولكم؟ فقال شقيق: أصّلنا أصولنا أنا إذا رزقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا. فقال إبراهيم ابن أدهم: هكذا كلاب بلخ. إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت، فقال

---

(١) معنى خراسان بالفارسية: مطلع الشمس، والعرب إذا ذكرت المشرق كله قالوا فارس، فخراسان من فارس.

(٢) حذيفة بن قتادة المرعشي من العباد يروى عن أبي إسحاق الفزاري، وهو ممن لا يأكل إلا الحلال المحض سكن أنطاكية قيل مات سنة سبع ومائتين.

شقيق: فعلى ماذا أصّلتم أصولكم يا أبا اسحاق؟ قال: أصّلنا أصولنا على إنا إذا رزقنا آثرنا، وإذا منعنا حمدنا وشكرنا. فقام شقيق وجلس بين يديه وقال: يا أبا إسحاق أنت أستاذنا.

- وكان إبراهيم بن أدهم يحرس كرماً، فمر به جندي، فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال: ما أمرني به صاحبه، فأخذ يضربه بسوطه، فطأطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى اللّه تعالى، فأعجز الرجل ومضى.

- حدث ابن تميم[1] فقال: قلت لإبراهيم بن أدهم: منذ كم أنت بالشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما أتيتها لرباط -يعني لغزو- قلت: فَلِمَ؟ قال: لأشبع من خبز الحلال.

- خرج إبراهيم بن أدهم من بيت المقدس فمر بمَسْلَحَةٍ (قوم ذوي سلاح) فقالوا: عبدٌ؟ قال: نعم، قالوا: آبق؟ قال: نعم، فذهبوا به فحبسوه بسجن في طبريا[2]، قال فجاء رجل يطلب عبداً له آبقاً من بيت المقدس، فقيل له: إن في مسلحة كذا قد أصابوا غلاماً آبقاً، وهو في السجن بطبريا، قال: فذهب إلى السجن فإذا هو بإبراهيم بن أدهم، قال: سبحان الله ما تصنع ها هنا، قال: أنا ها هنا، وما أحسن مكاني! قال: فرجع الرجل إلى بيت المقدس، فأخبرهم فجاء الناس من بيت المقدس إلى أمير طبريا فقالوا: إبراهيم

---

(١) خلف بن تميم بن أبي عتّاب: أبو عبد الرحمن الكوفي. روى عن سفيان وزائدة وأبي بكر النَّهشلي، وجماعة. وروى عنه أبو إسحاق الفزاري مع تقدُّمه وأحمد بن الخليل البرجلاني وغيرهما. وقال ابن شيبة: ثقة صدوق، أحد النُّسّاك المجاهدين، صحب إبراهيم بن أدهم. توفي سنة ستٍ ومائتين، وروى له النسائيّ وابن ماجه. [الوافي بالوفيات]

(٢) طبريا معروفة في الشام سميت بذلك لأن أحد ملوك الروم بناها واسمه طباري.

ما يصنع في حبسك؟ قال: ما حبسته. قالوا: بلى، قال: فبعث إليه فجاءه، فقال له: لِمَ حبست؟ فقال: مررت بمسلحة، فقالوا: عبدٌ، قلت: نعم وأنا عبد الله، قالوا: آبقٌ، قلت: نعم وأنا آبق من ذنوبي، قال: فخلى سبيله.

- كتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

- كان إبراهيم بن أدهم في البحر فعصفت الريح واشتدت، وإبراهيم ملفوف في كسائه، فجعل أهل السفينة ينظرون إليه، فقال له رجل منهم: يا هذا ما ترى ما نحن فيه من هذا الهول، وأنت نائم في كسائك؟ قال: فكشف إبراهيم رأسه فأخرجه من الكساء ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، قال:فسكن البحر وهدأت السفينة.

- قالَ: يا أهلَ البصرةِ قد ماتتْ قلوبُكُمْ بعشرةِ أشياءَ فكيفَ يُستجابُ لكم؟

أولاً: عرفتُم اللهَ و لم تؤدوا حقَّهُ.

ثانياً: قرأتُم القرآنَ و لم تعملوا به.

ثالثاً: ادَّعيْتُمْ حُبَّ الرسولِ وتركْتُمْ سُنَّتَهُ.

رابعاً: ادَّعيتم عداوةَ الشيطانِ وأطعْتُموه.

خامساً: ادَّعيتم دخولَ الجنةِ و لم تعملوا لها.

سادساً: ادعيتم النجاةَ من النار ورَمَيْتُمْ بها أنفسَكُمْ.

سابعاً: قلتم الموتُ حقٌّ و لم تستعِدُّوا له.

ثامناً: اشتغلتم بعيوبِ الناسِ وتركتم عيوبَكُمْ.

تاسعاً: دفنْتُمْ موتاكم و لم تَعْتبروا.

عاشراً: أكلتم نعمةَ الله و لم تشكروه عليها.

من أقواله:

- من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.
- اتخذ اللّه صاحباً، وذر الناس جانباً.
- من أراد الراحة فليخرج الخلق من قلبه حتى يستريح.
- كثرة النظر إلى الباطل يذهب بمعرفة الحق من القلب.
- ما صدق اللّه عبد أحب الشهرة.

ثالثاً- الفضيل بن عياض

- هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي أبو علي، ولد بسمرقند ونشأ بكورة بأبيورد[1]، وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الحديث، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فمات بها سنة (١٨٧هـ/٨٠٣م) في الشهر المحرم.

- قال الفضيل بن موسى (من أصحاب الفضيل): كان الفضيل شاطراً[2] يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[3].

فقال: يا رب قد آنَ، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعض آخر: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمنهم، وجاور الحرم حتى مات.

- قال إسحاق بن إبراهيم (من أصحاب الفضيل): كانت قراءة الفضيل حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها، وكان يلقى له حصير بالليل في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه، فيلقي نفسه على الحصير، فينام قليلاً ثم يقوم، فإذا غلبه

---

(١) أبيورد: مدينة بخراسان بين سرسخ ونسا، فتحت عام ٣١هـ على يد عبد الله بن عامر بن كريز، وهذه المدينة تابعة اليوم للتركستان الروسية.

(٢) الشاطر: هو بمعنى قاطع الطريق، وبمعنى: الخبيث الفاجر. وإطلاق المدرسين له على المتميز من الطلاب في الدرس خطأ فاحش، فليتنبه. [معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ للشيخ بكر أبو زيد]

(٣) سورة الحديد: ١٦.

النوم نام، ثم يقوم هكذا حتى يصبح.

- قال وسمعت الفضيل يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبل كبَّلتكَ خطيئتك.

- وعن مهران بن عمرو الأسدي (من أصحاب الفضيل) قال: سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفة بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء يقول: واسوأتاه وفضيحتاه إن لم تعْفُ عني.

- وعن أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور (من رواة الفضيل) فأتيناه فحدثنا قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقيل لنا إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن، وكان صيتاً، فقلنا له: اقرأ (ألهاكم التكاثر) فقرأها ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر؟
أتى لي ثمانون من مولدي ... وبعد الثمانين ما ينتظر؟
علتني السنون فأبلينني...

- قال: ثم خنقته العبرة، وكان معنا علي بن خشرم[1]، فأتمه لنا فقال:

علتني السنون فأبلينني ... فرقت عظامي وكلَّ البصر

- قال أبو علي الرازي (من أصحاب الفضيل): صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك،

---

(١) علي بن خشرم المروزي ابن أخت بشر الحافي. روى عنه مسلم والنسائي. توفي سنة سبع وخمسين ومائتين. [الوافي بالوفيات]

فقال: إنَّ الله أحب أمراً فأحببت ذلك.

من أقواله:

● لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

● ترك العمل لأجل الناس هو رياء، والعمل لأجل الناس هو شرك.

● قال لرجل: لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لَئِنْ علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.

● وعن الفضل بن الربيع[1] قال: حج أمير المؤمنين الرشيد فأتاني فخرجت مسرعاً فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله فقلت ها هنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله (يريد النصيحة).

فحدثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا انظر لي رجلاً اسأله فقلت له هاهنا عبد الرزاق بن همام[2] قال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال من

---

(١) الفضل بن الربيع أبو العباس الفضيل بن الربيع بن يونس،: وزير أديب حازم. تولى الوزارة في عهد الرشيد توفي سنة (٢٠٨هـ/٨٢٤م) [الأعلام للزركلي].

(٢) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني: من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء. كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث. له (الجامع الكبير) في الحديث. توفي سنة (٢١١هـ/٨٢٧م) [الأعلام للزركلي].

هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك قال خذ لما جئناك له.

فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال ما أغنى صاحبك شيئا انظر لي رجلا اسأله قلت ها هنا الفضيل بن عياض قال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا وهو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها فقال اقرع الباب فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال ما لي ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ انه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه فنـــزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زواية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه فقال يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله ﷻ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقيّ من قلب تقيّ فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله فقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء ابن حيوة (وهم من علماء زمانه) فقال لهم إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء وعددها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت وقال له محمد بن كعب القرظي إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء ين حيوة إن أردت النجاة غدا من عذاب الله ﷻ فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت وإني

أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وارفق به أنا ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله ﷻ.

قال فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال له زدني رحمك الله فقال يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له النبي ﷺ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل .

فبكى هارون بكاء شديداً وقال له زدني رحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة.

بكى هارون وقال له عليك دين قال نعم دين لربي يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي قال إنما أعني دين العباد قال إن ربي لم يأمرني بهذا أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره فقال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن

يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

فقال له هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتَقَوَّ بها على عبادتك فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به فقال لها مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا.

ومن أقواله أيضاً:

- يجيء في آخر الزمان أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة.
- لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال.
- ثلاث خصال يقسين القلب: كثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم.

(١) سورة الذاريات: ٥٦-٥٨.

رابعاً- شقيق البلخي

- هو أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي، ت (١٢٤هـ/٨١٠م) من مشايخ خراسان[١]، كان أستاذ حاتم الأصم (ستمر ترجمته لاحقاً)، وقد صحب إبراهيم بن الأدهم وأخذ عنه، قيل كان سبب زهده أنه كان من أبناء الأغنياء، خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث، فدخل بيتاً للأصنام، فرأى خادماً للأصنام قد حلق رأسه ولحيته، ولبس ثياباً أرجوانية، فقال شقيق للخادم: إن لك صانعاً حياً عالماً قادراً فاعبده، ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فقال: إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك، فلماذا أتعبت نفسك بالمجيء إلى ها هنا للتجارة، فانتبه شقيق، وأخذ في طريق الزهد.

- وقيل: كان سبب زهده أنه رأى مملوكاً يلعب ويمرح في زمن قحطٍ، وكان الناس مهتمين به، فقال شقيق: ما هذا النشاط الذي فيك؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب والقحط؟ فقال ذلك المملوك: وما علي من ذلك، ولمولاي قرية خاصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه، فانتبه شقيق وقال: إن كان لمولاه قرية، ومولاه مخلوق فقير ثم إنه لا يهتم لرزقه، فكيف ينبغي أن يهتم لرزقه ومولاه غني.

- قال حاتم الأصم: كان شقيق البلخي موسراً، وكان يعاشر الفتيان، وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ، وكان يحب كلاب الصيد، ففقد كلباً من كلابه، فسعى برجل أنه عنده، وكان الرجل في جوار شقيق، فطلب الرجل فهرب، فدخل دار شقيق مستجيراً، فمضى شقيق إلى الأمير، وقال:

---

(١) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند [معجم البلدان].

خلُّوا سبيله، فإن الكلب عندي أرده عليكم خلال ثلاثة أيام، فخلُّوا سبيله وانصرف شقيق.

- ولما كان اليوم الثالث، كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ، وقد رجع منها، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة، فأخذه، وقال: أهديه إلى شقيق، فحمله فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير، فسر به وحمله إلى الأمير، وتخلص من الضمان، فرزقه الانتباه، وتاب مما كان فيه وسلك طريق الزهد.

- وحكي أن حاتماً الأصمَّ قال: كنا مع شقيق في مصاف (موضع الحرب) نحارب الترك في يوم لا نرى فيه إلا رؤوساً تندر (تسقط)، ورماحاً تنقصف، وسيوفاً تنقطع، فقال لي شقيق: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفّت إليك امرأتك؟ فقال: لا، والله. قال: لكنّي والله أرى نفسي في هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك الليلة.

ثم نام بين الصفَّين ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه.

من أقواله:

● إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر لما وعده الله ووعده الناس، فبأيهما يكون قلبه أوثق؟

● تُعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: في أخذِه، ومنعِه، وكلامِه.

● العاقل لا يخرج من هذه الثلاثة الأحرف، أوله: أن يكون خائفاً لما سلف منه من الذنوب، والثاني: لا يدري ما يترل به ساعة بعد ساعة، والثالث: يخاف من إبهام العاقبة، لا يدري بما يختم له.

● احذر أن تملك بالدنيا، فإن رزقك لا يعطى لأحد سواك.

● التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله.

● دخل الفساد في الخلق من ستة أشياء:

الأول: ضعف النية في عمل الآخرة، والثاني: صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم.

والثالث: غلب طول الأمل على قرب أجلهم.

والرابع: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة رسولهم ﷺ وراء ظهورهم.

والخامس: آثروا رضا المخلوقين فيما يشتهون على رضا خالقهم فيما يكرهون.

والسادس: جعلوا زلات السلف ديناً ومناقب لأنفسهم.

● من أراد أن يعرف معرفته بالله فلينظر إلى ما وعده الله ووعده الناس بأيهما قلبه أوثق.

● ميز بين ما تُعْطِي وتعطَى، إن كان من يعطيك أحب إليك فإنك محب للدنيا، وإن كان من تعطيه أحب إليك فأنت محب للآخرة.

● اتقِ الأغنياء، فإنك متى عقدت قلبك معهم وطمعت فيهم، فقد اتخذتهم رباً من دون الله.

● ليس شيء أحب إليَّ من الضيف، لأن رزقه ومؤونته على الله ولي أجره.

● إذا أردت أن تكون في راحة فَكُلْ ما أصبت، والْبَس ما وجدت، وارضَ بما قضى الله عليك.

● مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن تحمل شوكاً ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكا وهو يطمع أن يحصد تمرا هيهات، كل من عمل حسنا فإن الله لا يجزيه إلا حسنا، ولا ينـــزل الأبرار منازل الفجار.

خامساً- بشر الحافي

- بشر بن الحارث الحافي يكنى أبا نصر المروزي ثم البغدادي المشهور بالحافي، وهو الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة شيخ الإسلام، ولد في سنة (١٥٠هـ/٧٦٧م) وتوفي (٢٢٧هـ/٨٤١م). أصله من مرو، وقد سكن بغداد ومات فيها، وهو ابن أخت علي بن خشرم[1] صحب الفضيل بن عياض، وكان عالماً ورعاً يذهب مذهب سفيان الثوري في الفقه والورع جميعاً.

- قيل: إنه كان مع رفاقه في بيته يعصي الله ﷻ باللهو والطرب وشرب الخمور، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحين، وسمع ضوضاءهم، فدق بابه، فخرجت إليه جاريته، فسألها: صاحب الدار حرٌ أم عبدٌ؟ فقالت: بل حرٌ، فقال: صدقت، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية، وترك اللهو والطرب، فسمع بِشرٌ المحاورة، فخرج إليه، وأسرع بالمشي إليه حافياً، ثم استوقفه ومرغ خده على الأرض، وقال: بل عبدٌ عبدٌ عبدٌ، وتاب، وبقي حافياً حتى وفاته.

- عن أيوب العطار قال، قال لي بشر بن الحارث الحافي: أحدثك عن بدوٍ أمري بينما أنا أمشي رأيت قرطاساً على وجه الأرض فيه اسم الله تعالى فنـــزلت إلى النهر فغسلته وكنت لا أملك من الدنيا إلا درهماً فيه خمسة دوانق فاشتريت بأربعة دوانيق مسكاً وبدانق ماء ورد وجعلت أتتبع اسم الله تعالى وأطيبه ثم رجعت إلى منـــزلي فنمت فأتاني آت في منامي فقال يا بشر كما طيبت اسمي لأطيبن اسمك وكما طهرته لأطهرن قلبك.

- سئل أحمد بن حنبل عن مسألة في الورع، فقال: أنا، أستغفر الله، لا يحل لي أن أتكلم في مسألة في الورع أنا آكل من غلة بغداد لو سألت بشر بن

---

(١) من رواة الحديث قال عنه النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات.

الحارث صلح أن يجيبك عنها، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد فهو يصلح أن يتكلم في الورع.

- رحل بشر بن الحارث في طلب العلم إلى مكة والكوفة والبصرة، وسمع من وكيع وعيسى بن يونس وشريك بن عبد الله وأبي معاوية وحماد بن زيد ومالك بن أنس وأبي يوسف القاضي وابن المبارك والفضيل بن عياض وأبي نعيم وغيرهم غير أنه لم يتصَدَّ للرواية، فلم يضبط عنه من الحديث إلا اليسير.

من أقوله:

- اللهم استر واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره.
- إن الجوع يصفي الفؤاد، ويورث العلم الدقيق، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره.
- ليس من المودة أن تحب ما يبغض حبيبك.
- بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تعمى الأبصار بالنظر إليهم.
- يكون الرجل مرائياً في حياته مرائياً بعد موته، قيل: كيف يكون مرائياً بعد موته؟ قال: يحب أن يكثر الناس على جنازته.
- النظر إلى الأحمق سخنة[1] عين، والنظر إلى البخيل يقسي القلب.
- الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الناس.
- أوحى الله إلى داود أني لم أخلق الشهوات إلا للضعفاء من عبادي، فأما الأبطال فما لهم ولها.
- أوحى الله إلى داود: اغضب لي أشد ما تغضب لنفسك.

---

(١) سخنة: حرّ أو حمى.

● من لم يحتمل الغضة[1] والأذى لم يقدر أن يدخل فيما يحب.

ذهب الرجال المرتجى لفعـــالهم والمنكرون لكل أمـــر مُنكَـــرِ

وبقيت في خَلْفٍ يزيِّن بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معْورِ[2]

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى لا تخاصم أهل الأهواء، فيلقوا في قلبك شيئاً فيرديك، فيسخط الله عليك.

● قال بشر يوم ماتت أخته: إن العبد إذا قصر عن طاعة الله سلبه من يؤنسه.

● توفي رضي الله عنه عشية الأربعاء لعشر بقين من ربيع الأول، وقد بلغ من العمر خمساً وسبعين سنة.

● قال ابن خزيمة: لما مات أحمد بن حنبل بت من ليلتي فرأيته في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال لي: يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي، قلت: فما فعل بشر؟ فقال لي: بخٍ بخٍ من مثل بشر؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام، والجليل مقبل عليه، وهو يقول له: كُلّ يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب، وانْعَمْ يا من لم ينعم. رحمه الله ورضي عنه.

● وما أجمل قوله:

موت التقي حياة لا نفاد لها قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

(١) الغضة: الذلة والمنقصة والعيب يقال لا غضاضة عليك في هذا الفعل. [القاموس المحيط]

(٢) رجل معور: قبيح السريرة.

سادساً- حاتم الأصم

- هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان المعروف بالأصم من أهل بلخ توفي (٢٣٧هـ/٧٥١م) من أكابر مشايخ خراسان، وهو تلميذ شقيق، وأستاذ أحمد بن خضرويه (من كبار علماء التصوف)، وكان غزير الحديث، ويقال إنه لم يكن أصم، وإنما تصامَّ مرة فسمي بذلك.

- قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، فأرى من نفسه أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فغلب عليه اسم الأصم.

- سئل: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: أليست الأيام كلها عافية؟ فقال: إنَّ عافية يومي ألا أعصي الله فيه.

- وحكي أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعولكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكرت لهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج،

وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابُهُ وجيرانُهُ، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم فضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، وقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء. إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً،

فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

- وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيباً، فلم يجدوا، فقال: هل عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقّاه أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

من أقواله:

● اختلفت إلى شقيق ثلاثين سنة، فقال لي يوماً: أي شيء تعلمت؟ فقلت: رأيت رزقي من عند ربي، فلم أشتغل إلا بربي، ورأيت أن الله تعالى وكل بي ملكين يكتبان علي ما تكلمت به فلم أنطق إلا بالحق، ورأيت أن الخلق ينظرون إلى ظاهري والرب تعالى ينظر إلى باطني، فرأيت مراقبته أولى وأوجب، فسقطت عني رؤية الخلق، ورأيت أن الله مستحثاً يدعو الخلق إليه فاستعددت له متى جاءني، فقال لي: يا حاتم ما خاب سعيك.

● كنت في بعض الغزوات فأخذني عدوي فأضجعني للذبح، فلم يشتغل به قلبي بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فيّ، فبينما هو يتناول السكين من خلفه للذبح، إذ بسهم أصابه فقتله وطرحه عني فقمت.

● أربعة يندمون على أربع: المقصر إذا فاته العمل، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابته نائبة، والممكن منه عدُوه بسوء رأيه، والجريء على الذنوب.

● الزم خدمة مولاك تَأتكِ الدنيا راغمة والجنة عاشقة.

● تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، إذا سكت فاذكر علم الله فيك.

● من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب: من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقراء فهو كذاب.

● إن كنت تريد أن تعصي مولاك فاعصه في موضع لا يراك.

● الجهاد ثلاثة: جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله ﷻ، وجهاد مع أعداء الله في عز الإسلام.

● النصيحة للخلق: إذا رأيت إنساناً في الحسنة أن تحثه عليها، وإذا رأيته في معصية أن ترحمه.

● المنافق: ما أخذ من الدنيا يأخذ بحرص، ويمنع بالشك، وينفق بالرياء، والمؤمن يأخذ بالخوف، ويمسك بالشدة، وينفق خالصاً في الطاعة.

● يقال: العجلة من الشيطان، إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر ضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا أوجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب.

● لو أن صاحب خير جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزت منه، وكلامك يعرض على الله تعالى فلا تحترز.

● وسأله رجل فقال: علام بنيت أمرك هذا في التوكل؟ قال: على خصال أربع: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي.

وعلمت أن عملي لا يعلمه غيري فأنا مشغول به.

وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره.

وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحي منه.

● مر عصام بن يوسف[1] بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه، فقال: يا حاتم تحسن تصلي؟ قال: نعم قال: كيف تصلي؟ قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالسبيل والسنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله ﷻ، وأرجح على نفسي بالخوف أخاف أن لا يقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت، قال: تكلم فأنت تحسن أن تصلي.

(١) عصام البلخي عصام بن يوسف بن ميمون بن قدامة البلخي، الحنفي. من آثاره: مختصر في الفقه. توفي سنة (٢١٥هـ/٨٣٠م). [معجم المؤلفين]

سابعاً- سرّي السقطي

- ويقال له السري وهو أبو الحسن السرّي بن المغْلس[1] السقطي توفي (٢٥٣هـ/٨٦٧م) يكنى أبا الحسن خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه وتلميذ معروف الكرخي وكان وحيد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد.

- كان يقول: من أراد أن يسلم دينه، ويستريح قلبه وبدنه، ويقل غمه، فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة.

- قال أبو العباس بن مسروق (من رجال أهل التصوف): بلغني أن السريَّ السقطي كان يتَّجر في السوق، وهو من أصحاب معروف الكرخي، فجاءه معروف يوماً، ومعه صبي يتيم، فقال: اكسُ هذا اليتيم. قال سري: فكسوته، ففرح به معروف، وقال: بغَّض الله إليك الدنيا، وأراحك مما أنت فيه.

فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إليَّ من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

- عن أبي القاسم سليمان بن محمد الضراب (أحد معاصري السري) قال حدثني بعض إخواني أن سريا السقطي مرت به جارية معها إناء فيه شيء فسقط من يدها فانكسر فاخذ سري شيئا من دكانه فدفعه إليها بدل ذلك الإناء فنظر إليه معروف الكرخي فأعجبه ما صنع فقال له معروف بغض الله إليك الدنيا.

- وعن مظفر بن سهل المقرئ قال سمعت علان الخياط (هما من رجال التصوف) وجرى بيني وبينه مناقب سري السقطي فقال علان كنت جالساً

---

(١) لقب بذلك لأنه كان ملازماً بيته لا يخرج منه إلا للجمعة والجماعة ولا يرى في غيرهما.

مع سري يوما فوافته امرأة فقالت يا أبا الحسن أنا من جيرانك أخذ ابني الطائف (عسس الليل) وأنا أخشى أن يؤذيه فان رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه.

قال علان فتوقعت أن يبعث إليه فقام وكبر وطول في صلاته فقالت المرأة: يا أبا الحسن الله الله في هذا أخشى أن يؤذيه السلطان فسلم وقال لها أنا في حاجتك (أي أنه كان يدعو الله لها ليفرج عن ابنها) .

قال علان: فما برحت حتى جاءت امرأة إلى المرأة فقالت الحقي قد خلوا ابنك. قال علان وأي شيء يتعجب من هذا اشتري كر[1] لوز بستين دينارا وكتب في روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه فصار كر اللوز بتسعين ديناراً فأتاه الدلال وقال أريد ذاك اللوز فقال خذه فقال بكم قال بثلاثة وستين ديناراً قال له الدلال إن اللوز قد صار الكر بتسعين فقال له قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله: ليس أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً فقال له الدلال إني قد عقدت بيني وبين الله تعالى لا أغش مسلما لست آخذه منك إلا بتسعين ديناراً فلا الدلال اشترى منه ولا سري باعه فكيف لا يستجاب دعاء من هذا فعله؟.

– وعن ابن أبي الورد (من أصحاب بشر الحافي) قال دخلت على سري السقطي وهو يبكي ودورقه مكسور فقلت ما لك قال انكسر الدورق فقلت أنا اشتري لك بدله فقال لي تشتري بدله وأنا اعرف من أين الدانق الذي نشتري به الدورق ومن عمله ومن أين طينه وأي شيء أكل عامله حتى فرغ من عمله.

وعن سعيد بن عثمان بن السكن (من حفاظ الحديث) قال سمعت سري ابن المغلس يقول غزونا أرض الروم فمررت بروضة خضرة فيها الخيار وحجر

---

(١) مكيال يستعمل في العراق.

منقور فيه ماء المطر فقلت في نفسي لئن أكلت يوما حلالا فاليوم فنـــزلت عن دابتي وجعلت آكل من ذلك الخيار وشربت من ذلك الماء فإذا هاتف يهتف بي يا سري النفقة التي بلغت لها إلى ها هنا من أين؟

– يقول الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رأي مضجعاً[1] إلا في علة الموت.

– قال الجنيد: وكان السري يقول لنا ونحن حوله أنا لكم عبرة يا معشر الشباب اعملوا فإنما العمل في الشبيبة.

من أقواله:

● المتصوف اسم لثلاثة معانٍ: هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى.

● مُنْذُ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرة، وقيل كيف ذلك؟ قال: وقع حريق ببغداد، فاستقبلني رجلٌ فقال لي: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين.

● من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم.

● قليل في سنة خير من كثير في بدعة، فكيف يقل عمل مع تقوى؟.

● الأدب ترجمان العقل، ولسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك، يتبين على الوجه ما تضمر القلوب.

● من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس.

---

(١) في ذلك إشارة إلى كمال مجاهدته، والتزامه الإقبال على الله تعالى بالقلب والجوارح.

● رأيت الفوائد تَرِدُ في ظلم الليل.

● أجلد الناس من ملك غضبه، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله، ولن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

● قلوب المؤمنين معلقة بالسوابق، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، هؤلاء يقولون بماذا يختم لنا، وأولئك يقولون ماذا سبق من الله لنا؟.

● من حاسب نفسه استحيا الله من حسابه، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

● إن الله سبحانه، سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأجرها من قلوب أهل وداده؛ لأنه لم يرضها لهم.

● انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بالله بأربع خصال فأما من انقطع عن الله فانه يتخطى إلى نافلة بتضييع فرض والثاني عمل بظاهر الجوارح لم يواطىء عليه صدق القلوب وأما الذي اتصل به المتصلون فبلزوم الباب والتشمير في الخدمة والصبر على المكاره وصيانات الكرامات.

● ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

● لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا[1].

---

(١) أي أصبح أسير كلام الطيور، ويخشى على نفسه من الغرور، وهو استدراج فكل إنسان يعرف نفسه.

● الدهر ثلاثة أيام يوم مضى بؤسه وشدته وغمه لم يبق منه شيء واليوم الذي أنت فيه صديق مودع لك طويل الغيبة عنك سريع الرحلة عنك وغداً في يديك تأميله ولعلك من غير أهله.

● أمس أجل واليوم عمل وغداً أمل.

● أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد، فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: أخاف ألا يقبلني قبري فافتضح.

● دخلت على سري السقطي وهو في النـــزع فجلست عند رأسه فوضعت خدي على خده فدمعت عيناي فوقع دمعي على خده ففتح عينيه فقال لي من أنت قلت أنا خادمك الجنيد فقال مرحبا فقلت له أيها الشيخ أوصني بوصية انتفع بها بعدك قال إياك ومصاحبة الأشرار وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار.

● توفي سري بن المغلس يوم الثلاثاء لستٍ خلون من رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين.

● وعن أبي عبيد بن حربوية (كان قاضي مصر وفقيهها) قال حضرت جنازة سري السقطي فسررت فحدثنا رجل عن آخر أنه حضر جنازة سري السقطي فلما كان في بعض الليل رآه في النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلى عليّ فقلت: فإني ممن حضر جنازتك وصلى عليك قال فاخرج درجاً فنظر فيه فلم ير لي فيه اسماً فقلت بلى قد حضرت قال فنظر فإذا اسمي في الحاشية رحمه الله ورضي عنه.

ثامناً- أبو يزيد البسطامي

- وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان -وكان سروشان مجوسياً فأسلم- وكان لعيسى ثلاثة أولاد: أبو يزيد وهو أوسطهم، وآدم، وهو أكبرهم، وعلي وهو أصغرهم، وكانوا كلهم عباداً زهاداً، أما أبو يزيد فكان أجلهم حالاً، وهو من أهل بسطام[1]، وتوفي فيها سنة (٢٦١هـ/٨٧٥م) وله ثلاث وسبعون سنة.

- وسئل أبو يزيد: بأي شيء وجدْتَ هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار.

- وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلّه.

- إبراهيم الهروي قال: سمعت أبا يزيد البسطامي يقول: غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته.

- قال منصور وسمعت أبا عمران موسى بن عيسى يقول: سمعت أبي يقول: قال أبو يزيد عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

- سئل: أبو يزيد عن ابتدائه زهده، فقال: ليس للزهد منـــزلة. فقلت: لماذا؟ فقال: لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليومُ الرابع خرجت

---

(١) بِسْطامُ: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور منها وبها تفاح حسن الصبغ مشرق اللون يحمل إلى العراق يعرف بالبسطامي.

منه: اليوم الأول: زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني: زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث: زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق سوى الله.. فَهِمْتُ، فسمعت، هاتفاً يقول: يا أبا يزيد لا تقوى معنا. فقلت. هذا الذي أريده.

فسمعت قائلاً يقول: وَجدتَ، وجدت.

من أقواله:

● لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

● لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.

● وقد سئل ما علامة العارف؟ قال: ألا يفتر من ذكره ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بغيره.

● قال مخاطباً ربه: هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك.

● اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً، فأشغلهم بالعبادة.

● ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها.

● لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره.

● ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر.

● أشد المحجوبين عن الله ثلاثة بثلاثة، أولهم: الزاهد بزهده، والثاني: العابد بعبادته، والثالث: العالم بعلمه. ثم قال: مسكين الزاهد، لو علم أن الله ﷻ سمى الدنيا كلها قليلاً فكم ملك من الدنيا؟ وفي كم زهد مما ملك؟ وأما العابد فلو رأى مِنَّةَ الله عليه في العبادة عرف عبادته في المنة، وأما العالم فلو علم أن جميع ما أبدى الله ﷻ من العلم سطراً واحداً من اللوح المحفوظ فكم علم هذا العالم من ذلك السطر؟ وكم عمل مما علم؟

● قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف بي هاتف من يجالس الملوك فينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب.

● الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني فقيل له: لم؟ قال: لعله أن يقول لي فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك. فقوله لي: عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها. ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء.

● قال لرجل سأله: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي ﷻ؟ فقال: أحبب أولياء الله تعالى ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك.

● نظرت فإذا الناس في الدنيا متلذذون بالنكاح والطعام والشراب، وفي الآخرة بالمنكوح والملذوذ، فجعلت لذتي في الدنيا ذكر الله ﷻ وفي الآخرة النظر إلى الله ﷻ.

تاسعاً- الجنيد بن محمد

- وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزار، كان يقال له القواريري، لأن أباه كان يبيع الزجاج، أصله من نهاوند، ومنشؤه ببغداد، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب، كان مقبولاً عند الجماعة كبيراً في طريقة القوم، سيد هذه الطائفة وإمامهم، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة، لذلك كانوا يسمونه طاووس العلماء لجمعه بين علمي الظاهر والباطن، ولهذا كان أقرب رجال التصوف إلى قلوب الناس وعقولهم، وكان يؤكد الالتزام بظاهر الشرع ويقول: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وحكمه وجوامع كلمه كثيرة ينبئ عنها ما جمعه أبو نعيم في حلية الأولياء، توفي رحمه اللّه سنة (٢٩٧ هـ/٩١٠م) ودفن بجانب خاله بمقبرة الشونيزية ببغداد.

- قيل للجنيد: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة. وأومأ إلى درجة في داره.

- سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق، رحمه الله، يحكي ذلك، وسمعته يقول: رؤي في يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه.

- وعن أبي محمد المرتعش (أحد مشايخ العراق وزهادها) قال، قال الجنيد: كنت بين يدي سري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي: يا غلام ما الشكر فقلت ألا تعصي الله بنعمه فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك، قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي.

ومن أقواله:

● ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

● الطرق كلها مسدودة عن الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام.

● لو أقبل صادق على اللّه تعالى ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله.

● من لم يحفظ القرآن الكريم، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

● من نظر إلى ولي من أولياء اللّه فقبله وأكرمه، أكرمه اللّه على رؤوس الأشهاد.

● الغفلة عن الله ﷻ أشد من دخول النار.

● من عرف الله لا يسر إلا به.

● معاشر الفقراء إنما عرفتم بالله وتكرمون به فإذا خلوتم به فانظروا كيف تكونون معه.

● علامة إعراض العبد أن يشغله بما لا يعنيه.

● المروءة احتمال زلل الإخوان.

● قال لرجل سأله عن الطريق: الطريق توبة تحل الإصرار، وخوف يزيل الغرة، ورجاء يدعو إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب.

● قال رجل للجنيد: على ماذا يتـــأسف المحب من أوقاته؟ قال: على زمان بسطٍ أورث قبضاً، أو زمان أنس أورث وحشة، ثم أنشأ يقول:

قد كان لي مـــشرب يـــصفو فكدرته يد الأيام حين صـــفا

● وقال أبو محمد الحريري (أحد مشايخ الصوفية): كنت واقفاً على رأس الجنيد في وقت وفاته وكان يوم جمعة وهو يقرأ القرآن فقلت يا أبا القاسم ارفق بنفسك فقال: يا أبا محمد ما رأيت أحداً أحوج إليه مني في هذا الوقت وهو ذا تطوى صحيفتي.

● وعنه قال: حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل باكياً وساجداً فقلت له يا أبا القاسم قد بلغ بك ما أرى من الجهد فقال يا أبا محمد أحوج ما كنت إليه هذه الساعة فلم يزل باكياً وساجداً حتى فارق الدنيا.

● وعن فارس بن محمد (من أصحاب الجنيد) قال: كان أبو القاسم الجنيد كثير الصلاة ثم رأيناه في وقت موته وهو يدرس ويقدم إليه الوسادة فيسجد عليها فقيل له هلا روحت عن نفسك فقال طريق وصلت به إلى الله لا أقطعه.

● وقال أبو بكر العطار (من رجال الحديث) حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا قال فكان قاعداً يصلي ويثني رجله كلما أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقل عليه حركتها فمد رجليه وقد تورمتا فرآه بعض أصدقائه فقال ما هذا يا أبا القاسم فقال هذه نعم -الله أكبر- فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريري لو اضطجعت قال يا أبا محمد هذا وقت يؤخذ منه - الله اكبر- فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمه الله.

وتوفي يوم السبت في شوال وغسله أبو محمد الحريري وصلى عليه ولده وحزروا (قدروا) الجمع الذي صلى عليه فكانوا نحو ستين ألفاً.

وعن جعفر الخلدي (من أصحاب الجنيد) في كتابه عن أخبار العلماء قال: رأيت الجنيد في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال: طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر رحمه الله.

عاشراً- محمد الغزالي[1]

- هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي المعروف بالغزالي (زين الدين، حجة الإسلام) ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م) أي عاش خمساً وخمسين سنة فقط، وعرف بالغزالي وقد تشدد الزاي نسبة إلى حرفة والده وهي غزل الصوف، وقد تخفف نسبة إلى قريته التي ولد بها (غزالة في نواحي طوس).

- وهو متكلم، فقيه، أصولي، صوفي مشارك في أنواع من العلوم، له نحو مائتي مصنف في هذه العلوم المتعددة أشهرها: (إحياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) و(محك النظر) و(معارج القدس في أحوال النفس) و(الفرق بين الصالح وغير الصالح) و(مقاصد الفلاسفة) و(الوقف والابتداء) في التفسير، و(البسيط) في الفقه، و(المعارف العقلية)، و(المنقذ من الضلال)، و(بداية الهداية).

- مولده ووفاته في الطابران[2]، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته.

- ولقد كانت بيئته في طفولته وتربيته المنـــزلية الأولى ذات أثر واضح في تكوينه فيما بعد.

- فقد ولد في أسرة فقيرة متدينة، وحينما أحس أبوه بقرب أجله عهد برعاية ولديه أبي حامد وأخيه الأصغر منه المسمى أحمد إلى أحد أصدقائه من الصوفية.

---

(١) عمر كحالة: معجم المؤلفين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، الزركلي: الأعـــلام ول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة محمد بدران، الغزالي: المنقذ من الضلال.

(٢) الطابران: إحدى مدينتي طوس بخراسان.

– وقد قام هذا الرجل بواجبه في الإشراف على تربيتهما وتعليمهما ثم نصحهما بالانتقال إلى نيسابور، وهناك طلب الغزالي الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي (وهو من كبار علماء زمانه) بجرجان[1]، ثم تم له الاتصال بإمام الحرمين (أبي المعالي الجويني)[2]، فاشتغل عليه ولازمه، فظهر نبوغ الغزالي في فترة مبكرة، ثم جلس للإقراء، وحضر مجلس نظام الملك[3]، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت منـــزلة الغزالي، وندب للتدريس في نظامية بغداد.

– وقد أصبح الغزالي من أعلام مذهب الشافعي في الفقه، وأحد أركان المدرسة الأشعرية، بالإضافة إلى تعمقه في الفلسفة والمنطق والأصول.

– ولم يجد فيها راحته القلبية حتى اجتمع بالإمام الزاهد المتصوف أبي علي الفضل بن علي الفارمذي الطوسي (من كبار رجال التصوف) فأقبل

---

(١) جرجان: مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان. بناها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وهي أقل ندى ومطراً من طبرستان، يجري بينهما نهر تجري فيه السفن، بها فواكـــه كثيرة، وهي بين السهل والجبل والبر والبحر. [القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد]

(٢) الجويني: إمام الحرمين، أبو المعالي الجويني، عبد الملك بن أبي محمد بن عبد الله بـــن يوسف، الفقيه الشافعي ، أحد الأئمة الأعلام، عاش ستين سنةً، وتفقّـــه علـــى والده، وجاور بمكة في شبيبته أربعة أعوام، ومن ثم قيل له إمام الحرمين، وكان من أذكياء العلماء، وأحد أوعية العلم، توفي في ربيع الآخر بنيسابور، وكان له نحـــو من أربعمئة تلميذ، رحمه الله. [الذهبي: العبر في خبر من غبر]

(٣) نظام الملك: أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بقوام الـــدين، نظام الملك: وزير حازم عالي الهمة. أصله من نواحي طـــوس. وسمـــع الحـــديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان إلب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين. ثم أصبح وزيراً لابنه وأسس المدرسة النظامية في بغداد، وتوفي سنة (٤٨٥ ه/ ١٠٩٢ م). [انظر: الأعلام للزركلي]

عليه وأخذ منه علم التصوف وأخذ يطالع كتب التصوف فتعرف على كنه مقاصدهم، ثم دخل مدخلهم، وذاق أحوالهم، وسار في طريقهم.

- ويتحدث الغزالي عن تجربته الصوفية في كتابه المنقذ من الضلال بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب الأربعين، وعلوم الفلسفة القديمة في كتاب مقاصد الفلاسفة وكذلك التهافت يقول واصفاً التصوف والصوفية:

(ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنـــزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، والقدر الذي أذكره لينتفع به، هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم

وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية.

وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء في الكلية بالله).

- ثم أقبل الغزالي على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز فحج، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين ثم سار إلى القدس والإسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس، ثم إن الوزير فخر الدين ابن نظام الملك طلبه إلى نظامية نيسابور، فأجاب إلى ذلك، ثم عاد إلى وطنه، وابتنى إلى جواره خانقاه[1] للصوفية ومدرسة.

- ومن أراد أن يتعرف على أقوال وأعمال هذا العالم الفاضل فعليه أن يرجع إلى مؤلفاته الكثيرة في شتى العلوم الإسلامية.

- هذا وإن الدارس لعصر هذا الإمام الفاضل، وما اشتهر به هذا العصر من انتشار الفلسفة الدخيلة على العالم الإسلامي التي كادت تؤثر على أفكار المسلمين وتحرفهم عن جادة الصواب يدرك السبب الذي دفع هذا المجدد إلى الرد على هؤلاء الفلاسفة بمؤلفاته المتعددة التي كانت سبباً في عودة المسلمين إلى جادة الصواب، والتمسك بتعاليم الإسلام النابعة من القرآن والسنة، فكان حقاً حجة الإسلام، وحجة المسلمين.

- ولابد لكل طالب علم في كل زمان ومكان أن تحتوي مكتبته كتابه الجامع للعلوم المتعددة (إحياء علوم الدين) الذي يجد في الطالب كل ما يحتاجه من نفائس علوم الدين المتعددة.

---

(١) خانقاه: وهو رباط الصوفية ومتعبدهم فارسية أصلها خانه كاه.

وأما في مجال التصوف فلقد أضاف الغزالي للفكر الإسلامي من خلال تصوفه تجديداً وتصويباً وتنويراً في علوم التصوف أذكر منها ما يلي:

١- أعاد للعبادة جانبها الروحي من خشوع ورهبة، بعد أن حولها بعض الفقهاء إلى مجرد طقوس شكلية.

٢- حبب التصوف للناس بإزالة ما لحق به من فكر دخيل، مع إثباته أن المكاشفة تصل إلى ما لم يصل إليه العقل.

٣- كان المتصوفة قد استكانوا إلى الحب الإلهي وأغراهم الاطمئنان فأدى بهم إلى التقصير، فأعاد الغزالي للتصوف الخوف من اللّه على طريقة الحسن البصري.

٤- فلسف العبادات بإظهار حكمة التشريع فصارت قراءة الفقه أكثر إمتاعاً من عرض الفقهاء له.

٥- رفض ما دخل في التصوف من تطرف وخروج عن تعاليم الشريعة بتأثير الفلسفات الغربية بالإضافة إلى ما دخله من شعوذة وسحر وهذيان لا قيمة له إلا في نظر العامة.

٦- التركيز على تطهير الباطن وتصفية القلب وعدم الانخداع بالمظاهر، والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس ووقوعها في الرياء.

- **وأخيراً:** كان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف السني النابع من القرآن والسنة والبعيد عن التطرف أو الخروج عن تعاليم الشريعة، والبعيد عن الشعوذة والسحر والهذيان، والتركيز على تطهير الباطن، وتصفية الباطن وعدم الانخداع بالمظاهر والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس في الرياء.